المشرق

كتبة العرب وجغرافيّة سوريّة

نظر للاب هنري لامنس مدرّس الجغرافية الشرقيّة في المكتب الشرقيّ

ذكرنا في مقالتنا السابقة بطيب الثناء احد جغرافيي الاسلام شمس الدين المقدسي. وليس هو الكاتب الوحيد من العرب الذي ضنّ تأليفهُ الفوائد المتعدّدة في وصف سوريّة. وفي نيّتنا ان نعود مرارًا الى ذكر هؤلاء الكتبة في اثناء مقالاتنا الآتية عن هذه البلاد. وعليه أردنا أن نفرد لهم فصلًا كاملًا ليكون القرّاء على بصيرة من شهاداتهم ويقدّروا كتاباتهم قدرها

١

الجغرافيّون العرب الاقدمون

كان اوّل فتح سوريّة على يد القائد الكبير خالد بن الوليد الذي دخل دمشق بعد اواسط السنة ٦٣٦ للميلاد ثمّ أتمّ فتح بقيّة بلاد الشام في السنين التالية. فلمّا انتشرت العلوم بين العرب في القرن التاسع اخذ كتبتهم في ذكر الشام ووصف محاسنها وواصلوا هذه المصنّفات الى اواخر القرن الخامس عشر فنهم من اتّسع في وصفهِ ومنهم من اقتصر على بعض الفوائد فلو جُمعت كلّ هذه المآثر للدوّنة في زمن لا يقلّ عن ستة قرون لاندهل الأدباء من وفرتها. والحقّ يُقال ان كتبة العرب في الابحاث الجغرافيّة كما في غيرها من الفنون قد خلّفوا لنا من الآثار ما لا يجاريهم في كثرتهِ غيرهم من الشعوب. فيتحتّم علينا ان نبيّن شأن هذه التآليف ونعرّف قدرها وما يمكن العلماء ان يستخلصوا من فوائدها

لو تتبَّعنا تاريخ العرب في الازمنة العريقة في القدم لوجدناهم مزدانين بخلال فريدة للضرب في البوادي وللسياحة في البلدان. تصفَّحْ سفر التكوين لموسى كليم الله فانَّهُ قد ذكر غير مرَّة عرب البادية في أيَّام الآباء بعد الطوفان منذ ابرهيم الخليل الى يوسف الحسن وغاية ما يُستنتج من اوصافهِ انَّ العرب كانوا في ذلك الوقت ما عَهِدَهم التاريخ في الاجيال التابعة. فانَّهم يظهرون لنا كقوم رُحَّل يقودون القوافل ويتجشَّمون الاسفار للتجارة وقد جعل الله في يدهم زمام حيوان صبور يزيد نفعهُ على منافع الخيل المطهَّمة نريد الابل المعروفة بسُفُن البرّ. وهذا الوصف لا يختلف ذرَّةً عن احوال العرب في كرور الدهور حتَّى القرن السابع بعد الميلاد حيث ترى قريش تتولَّى قيادة القوافل وتمتار الميرة وتنقل السلع الى اسواق العراق والشام واليمن والحبشة ومصر

وليس بين التاجر الرحَّالة والجغرافيّ المخطِّط للبلدان مدًى واسع فانَّ المسافر يحتاج كالجغرافيّ الى التنقيب عن أحوال الأمم والامكنة التي يتردَّد اليها فيتبصر في مرافقها ويدرس طباعها ويبحث عن ثروة تربتها وغلَّاتها وطُرقها وطوارئ هوائها من حرّ وقرّ وكلّ ذلك يباشرهُ الرحَّالة لمنفعتهِ الخاصَّة كما يتولَّاهُ الجغرافيّ لنفع العموم. ومن هنا تعرف ان درس الجغرافية من اجمع الوسائل واكفلها بالربح في التجارة الواسعة

وممَّا زاد العرب نشاطًا في درس البلدان واعانهم على الرصود الجغرافيَّة التي خُصَّت بمراقبتها طباعهم ما اتاحهم الله من الفتوحات العظيمة في القرنين السابع والثامن. فانَّ سلطتهم بلغت ما وراء البلاد التي اتصلت اليها يد الاسكندر ذي القرنين. فلا غروَ انهم حاولوا معرفة الاقطار التي جعلها الله في حوزتهم فاسرعوا الى تقويمها وتحديد ثغورها واستطلاع خواصها. وقد ساعدهم على ذلك ما وقفوا عليهِ من المصنَّفات الجغرافيَّة السابقة لعهدهم من اوضاع الهنود والفُرس واليونان والرومان ممَّا نُقل الكثير منهُ الى العربيَّة. وكان العرب من أجدر الناس بان يبنوا لعلم الجغرافية صرحًا شامخًا متينًا بما توفَّر لديهم من الوسائل الضامنة لبلوغ هذه الغاية الشريفة وذلك بان يضيفوا معلوماتهم الى معلومات اسلافهم. وسوف نذكر سبب قصورهم عن هذه البغية الجلّى وان نال البعض منهم من ذوي المدارك العالية اسهمًا رابحة من المجد فكادوا يفوزون بقصبة السبق في هذا الميدان الجليل

وممَّا يجب الاقرار بهِ فضل كتبة العرب في وصف البلدان وتعريف خواصها. وذلك

مدخل العلوم الجغرافيَّة ومقدَّمتها يكفي للقيام به ان يكون الكاتب باصراً متروِّياً يُحسن مراقبة المرئيَّات دون ان يحتاج الى شيء من الآلات الرصديَّة او من العلوم الاعداديَّة. فمن ذلك أنهم احكموا معرفة اوساط آسية فاصلحوا أموراً عديدة مما رواهُ قبلهم اليونان والرومان راسمين كلامهم على عواهنه. مثال ذلك ما افادنا الرومان عن الصين حدساً وسماً أمَّا العرب فانَّهم تفقَّدوا مملكة ابن السماء بل بلغوا بلاد كورية ولعلَّهم ادركوا حدود اليابان. وقس على ذلك قارة افريقية فان الرومان جعلوا الصحراء حدودها فلم يعرفوا ما وراء تلك المفاوز المجهولة. اما العرب فانَّهم تجاوزوا تلك الحدود وطافوا في مجاهل افريقية الى قلب تلك البلاد. وهم اوَّل من ابحر الى جزيرة مدغشكار فعرَّفوا موقعها

اما الجغرافيَّة العلميَّة فانَّ معلومات العرب فيها محصورة ضيِّقة النطاق. فانَّ معرفتهم مثلاً لأعراض البلاد قد تشيَّبوا فيها آثار القدماء فاصابوا أو اخطأوا كلَّما اصاب أو اخطأ اسلافهم. اما خرائطهم ورسومهم لهيئة البلدان فانَّها غريبة الاشكال بعيدة عن مظانّ الحقّ (١ وقد اثبت منها المشرق مثالاً ملوناً فراجعهُ (المشرق ٣ : ١١٢٨) وها نحن ندوِّن هنا مثالاً آخر ننقلهُ ببعض الوانهِ عن كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي كما يُرى في احد مخطوطات مكتبة باريس العموميَّة. ولعلَّهُ احكمُ وأتقنُ ما وضعهُ العرب من الخرائط فانَّ البحر فيها مرسوم باللون الازرق ومجاري الانهار بالاخضر (٢. واغرب ما في هذا الأثر انَّ صاحبهُ سعى بتصوير سلسلة الجبال بتخطيطات مقطَّعة كما يشير اليها الجغرافيُّون المحدثون بعد أن حسَّنوا هذه الطريقة وزادوها دقَّة

هذا وان في رواياتهم واوصافهم نفسها مبالغات هي من الغرابة بمكان ينبغي على العاقل أن لا يقبلها الَّا بعد الرويَّة والانتقاد وهذه النقيصة تعمُّ زمانهم حيث كانت العلوم الطبيعيَّة في مهدها

وممَّا يؤخذ على كثيرين منهم آفة النقل والسرقة فانَّهم يروون ما سبق اليهِ غيرهم

---

١) اطلب تاريخ الجغرافية لسان مرتين وڤول (Vivien de St Martin: *Histoire de la Géographie*, 265; K. Weule: *Geschichte der Erdkenntnis und der geogr. Forschung*, 129-152)

٢) راجع Bulletin de l'Académie d'Hippone, 1896-1898, p. 12-13

بحرفهِ دون الاشارة الى التآليف التي نقلوا منها . وربَّما خُدع القارئ بكثرة الشواهد في بعض الامور ولو تروَّى لوجد انها كأنها راجعة الى مصدر واحد وانَّ الخلَف نسخوا عن السَّلف دون فرقٍ يُذكر في اللفظ والمعنى . ودونك ما كتبهُ في هذا الصدد شمس الدين المقدسيّ وغايتهُ ان يبيّن بقولهِ فضل تأليفهِ على تآليف من تقدَّمهُ . وكلامهُ مع طولهِ جديرٌ بالاعتبار يوقفنا على طريقة بعض كتبة العرب في مصنَّفاتهم الى زمن المؤلف في القرن العاشر قال :

اعلم اني اسَّستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندتهُ بدعائم قوية وحرَّيت جهدي الصواب . واستعنت بفهم اولي الالباب . . . فما وقع عليهِ اتفاقهم اثبتهُ . وما اختلفوا فيهِ نبذتهُ . وما لم يكن لي بدٌّ من الوصول اليهِ والوقوف عليهِ قصدتهُ وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبلهُ عقلي اسندتهُ الى الذي ذكرهُ او قلتُ زعموا . ووشَّحتهُ بفصول وجدتها في خزائن الملوك

وكل من سبقنا الى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ولا طلب الفوائد التي اردتها . اما ابو عبدالله الجَيْهاني فانهُ كان وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع النر باه وسألهم عن المسالك ودَخْلها وكيف المسالك اليها وارتفاع المنَّس منها وقيام الظل فيها ليتوصَّل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم لهُ علم النجوم ودوران الفلك ألا ترى كيف جعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكباً مرَّة يذكر النجوم والهندسة بكرَّة يورد ما ليس للعوام فيهِ فائدة وتارةً يثبت اصنام الهند وطورًا يصف عجائب الهند وحينًا يفصل الخراج والردّ ورأيتهُ ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكُوَر ولا رتَّب الاجناد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا مع شرح ما فيها من السهول والجبال والاودية والتلال والمشاجر والاحصار وبذلك طال كتابهُ وغفل عن اكثر طرق الاجناد ووصف المدائن الجياد . واما ابو زيد البلخي فانهُ قصد بكتابهِ الاشكلة وصورة الارض بعد ما قسمها على عشرين جزءًا ثم شرح كل مثال واختصر ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا اوضح الامور النافعة في التفصيل والترتيب وترك كثيرًا من امهات المدن فلم يذكرها وما دوَّخ البلدان ولا وطئ الاعمال . ألا ترى ان صاحب خراسان استدعاه الى حضرتهِ ليستعين بهِ فلمَّا بلغ جيحون كتب اليهِ « ان كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فان رأيي يمنعني من عبور هذا النهر » فلمَّا قرأ كتابهُ امرهُ بالخروج الى بلخ . واما ابن الفقيه الهمذاني فانهُ سلك طريقة أخرى ولم يذكر الَّا المدائن العظمى ولم يرتب الكُوَر والاجناد وادخل في كتابهِ ما لا يليق بهِ من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارةً يرغب فيها ودفعةً يُبكي وحينًا يُضحك ويلهي . واما الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جدًّا لا يُحصل منهما كثير فائدة

ثمَّ عاد المؤلف بعد هذا بأسطر الى تبرئة نفسهِ من جناية السرقة فقال (ص ٦) :

لا نذكر شيئًا قد سطَّروه ولا نشرح امرًا قد أوردوهُ الَّا عند الضرورة لئلَّا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم

ومع هذا ترى المقدسي نفسهُ بعد قولهِ عن ابن خرداذبه انهُ « مختصر جدًّا لا يُحصل منهُ كثير فائدة » ينقل عنهُ كل أقيسة مراحلهِ وتفاصيل أخرى عديدة دون ان يذكر اسمهُ وهو يفصل بابن الفقيه فعلهُ بابن خرداذبه فيأخذ عنهُ نصوصاً كثيرة ولا يذكر اسمهُ اكثر من ثلاث مرَّات مع انهُ يلومهُ لادراجهِ اشياء عديدة في كتابهِ لا طائل تحتها

ومما نأخذهُ على جغرافيي العرب انهم لم يكتفوا بوصف بلاد مخصوصة بل وسَّعوا نطاق عملهم الى جغرافيَّة الارض كلها باقاليمها وقد جروا في ذلك جَرْيَ المؤرخين الذين ارادوا تدوين اخبار العالم كلهِ والممالك جمعاء. فكانت نتيجة هذا العمل انهم لم يُعطوا البلاد حقَّها من الوصف. وكذا يُقال عن بلاد الشام التي لا تشغل في تآليفهم الَّا مكانًا ضيقًا ولو قصروا النظر اليها وحدها لأدَّوا حقوقها واستوفوا معانيها ولعلَّهم فعلوا ذلك لعلمهم بندرة الكتب لتكون تآليفهم جامعة لشتات التاريخ والوصف البلدان ونحن مع إقرارنا بهذه المنفعة نتأسف على قلَّة من تَصَقوا في تعريف بلادنا. ألا ترى مثلاً ابا الفداء وموطنهُ بلاد الشام لو اجتزأ بوصف بلاده بدلاً من وصف كلّ البلاد لكان كتابهُ تقويم البلدان اجزل قيمًا واكمل وصفًا يحتوي من التفاصيل ما لا يُرى في غيرهِ كما فعل الهمدانيّ في « صفة جزيرة العرب »

وقد بقي علينا ان نورد هنا اخصّ المطبوعات الجغرافيَّة لأنَّنا في المقالات التالية سوف نشير اليها مرَّات عديدة. فها نحن نذكرها مع بيان خواصها وفضل اصحابها. وقد اكتسب المستشرقون شكر العلماء اذ وجَّهوا الانظار الى اخصّ النصوص التاريخيَّة والجغرافيَّة فنشروها وقرَّبوا بنشرها منافعها وادنوا مواردها بحيث امكن المنتقد ان يتبيَّن ما تتضمَّنهُ من الفوائد والفرائد

وكان الشرق حقيقًا بان يوازر المستشرقين بالعمل لكنَّ اهل الشرق قد شُغلوا عن ذلك بما صرفهم في نشر التآليف الجغرافيَّة القديمة اللهمَّ الَّا القليل منها. وهذه المطبوعات نفسها خالية من النظر الانتقادي لا ترى فيها شيئًا ممَّا يدلّ على البحث والتنقير كالروايات المختلفة والمقابلة مع النصوص المتشابهة والفهارس الواسعة. ولا نستثني من هذا النقد طبعة صبح الاعشى للقلقشندي التي ابرزتها آخرًا المطبعة الخديويَّة وان كانت تفضل غيرها من الطبعات الشرقيَّة في هذا الباب. لكنَّ همَّة المستشرقين قد سدَّت هذا الخلل في ما نشروهُ في المانية وفرنسة من النصوص الجغرافيَّة

وبين البلاد التي اصابت السهم الافوز في نشر التآليف الجغرافيَّة بلاد هولندة. فانَّ هناك طُبع ذلك المجموع الفريد في ثمانية مجلَّدات المعروف بمجموع جغرافيي العرب (Bibliotheca geographorum arabicorum) وقد قام بهذا العمل رجلٌ همام من كبار المستشرقين احرز له بذلك مجدًا اثيلًا ألا وهو العلَّامة دي غوي (de Goeje) احد اساتذة كليَّة ليدن. وقد اودع هذا المجموع اجلّ المصنَّفات كالمسالك والممالك للاصطخري ولابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبه ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وكتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته والتنبيه والاشراف للمسعودي وكتاب البلدان لابن الواضح اليعقوبي. وممَّا سعى بطبعه داود مولّر من اساتذة ڤينَّة كتاب صفة جزيرة العرب. ولكلّ هذه التآليف حواشٍ وتذييلات معتبرة وفهارس واسعة فضلًا عن جداول لغويَّة للالفاظ الغريبة والمفردات العويصة التي تفرَّد بها بعض الكتبة دون البعض. وفي هذه الجداول من الفوائد ما لا يُنكَر ومن شأنها ان تساعد على تأليف معجم مطوَّل للغة العربيَّة يكون مبنيًّا على النصوص القديمة لا يكتفي فيه صاحبهُ بنقل القواميس السابقة

ومن افضل ما عُني المسيو دي غوي بنشره كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للامام شمس الدين المقدسي فانَّ في هذا الكتاب من المحاسن ما لا تراهُ في غيره لاسيما في احوال الشام على عهده اي في القرن العاشر ولذلك قد احببنا ان نكتب فيه فصلًا منفردًا في مقالة آتية (لهُ بقيَّة)

اثر جديد

لغبريال الثامن بطريرك الاقباط

نشره بالطبع لاوَّل مرَّة وعلَّق حواشيه الاب اطون رباط اليسوعي

تَوْطئة

نشرنا على صفحات المشرق (٧ : ٨٥٣ و٨٨١ و٩٥٥) سبعة نصوص عربية لم تعرف حتى الان ولم يسبق طبعها. كنَّا نقلناها بالتصوير عن اصلها المخطوط في المكتبة الڤاتيكانية بروميَّة العظمى. موضوعها رجوع الطائفة القبطية الى حجر الكنيسة الكاثوليكية في السنوات الاخيرة من القرن